المحاضرة 04:

مقاومة أحمد الشريف السنوسي:

أولاً: مقاومة الليبيين للغزو الإيطالي بعد انسحاب الأتراك:

على إثر توقيع معاهدة الصلح أوشي لوزان مع إيطاليا وانسحاب العثمانيين من ليبيا؛ وجدت القيادات المحلية نفسها وحيدة في مواجهة الجيوش الإيطالية ومصيرهم المحتوم لاسيما بعد سحب الدولة العثمانية لكل قواتها وأسلحتها في الوقت الذي هم فيه بأمس الحاجة إليها ليبقوا في ميادين القتال بأسلحة بسيطة وإمكانيات متواضعة في مواجهة العدو المدجج بأحدث الأسلحة والمعدات العسكرية, لكن هذا لم يضعف الشعب الليبي الذي حمل على عاتقه مواصلة الجهاد ففي برقة سلم أنور باشا ما تبقى من الأسلحة والمؤن العثمانية لأحمد الشريف, لذلك أعلن هذا الأخير الحكومة السنوسية والجهاد ضد الإيطاليين, أما في طرابلس فقد انقسم أهل البلاد إلى فريقين كان أحدهما يُصر على مواصلة القتال والآخر ينادي بالدخول في مفاوضات مع الإيطاليين على أساس المطالبة بالحكم الذاتي وفقاً لما نصّت عليه معاهدة لوزان, غير أنه قد رجحت كفة المقاومة وكان يتزعمها سليمان الباروني في طرابلس والجبل الغربي غير أنه لم يفلح في توحيد الشعب خلفاً لقيادته.

على الرغم من كل هذه الظروف من بقاء الليبيين لوحدهم في جبهات القتال وأمام تعدد احتياجاتهم ونواقصهم الحربية, وضغط الإيطاليين عليهم بشن حملات قوية وعنيفة, إلا أن المقاتلين الليبيين استمروا بنفس الروح النضالية الأولى, ودارت المعارك في الكثير من المناطق, خاصة في الفترة من مارس إلى نوفمبر 1914م من أهمها غزوة الزيدن وغزوة الفاتية وغزوة بونجيم, ولعل واقعة القرضابية 1915م قد كانت بمثابة فاتحة عهد لسلسلة الهزائم التي لحقت بالجيش الإيطالي, فكان رده أن أقام مجزرة في حق السكان حكم فيها بالإعدام على الكثير وفي مقدمتهم الأعيان والرؤساء, كما أصدر أمراً بالقتل العام, كما شن الإيطاليون هجوماً شاملاً على السنوسيون في الجبل الأخضر واحتلوا عدة أماكن كالعرقوب, شختب.

ظل الليبيون يقاتلون الإيطاليين مما حال دون تجاوز السيطرة الإيطالية المدن الساحلية: طرابلس الغرب, وبنغازي وطبرق؛ ولما دخلت إيطاليا الحرب عام 1915م انضم أحمد الشريف السنوسي إلى تركيا

ضد الحلفاء؛ لكن قواته تعرضت للهزيمة, فتنازل عن زعامة السنوسيين لابن عمه إدريس السنوسي, وفي مقابل عقد هدنة إعترفت بريطانيا , إيطاليا بإدريس أميراً على أجزاء من برقة.

وبهزيمة تركيا خضع الليبيون لسيطرة إيطاليا وغيرها من الدول الكبرى وبالرغم من أنهم لا يملكون القدر الكافي من السلاح فهذا لم يمنعهم من مواصلة قتالهم في سبيل تحرير أنفسهم من الحكم الاستعماري, وفي عام 1920م حصل إدريس في برقة على بعض الوعود غير الأكيدة من إيطاليا بهدف تهدئته مع أنصاره, فأنشئ مجلس إقليمي في برقة يضم ستين عضواً تنتخبهم القبائل.

1- الحركة السنوسية رائدة المقاومة:

كانت القيادة تحت يد السنوسية التي كان يديرها أحمد الشريف[1] وكانت تصدر الأوامر باسمها وخاصة في الميدان السياسي، فبدأ في منتصف شهر ديسمبر 1911 وأصدر نداءا يحث فيه الليبيين على الجهاد، وطلب بعدها من العثمانيين امداده بالدعم لمقاومة الطليان فأرسلت له جند نظاميين ابتداءا من 12 مارس 1912 كما وصلته بنادق وأسلحة في الغواصات الألمانية، فأسس في الكفرة مقر حركته ودعا الناس إلى الجهاد وانضم كثيرون إلى مقاومته وقد أبلى بلاءا حسنا في المقاومة جعل إيطاليا تطلب الهدنة وتصدر بيانا تعلن فيه اخضاعها لليبيا لكي تخفي ضعفها أمام الدول الأوروبية وتضغط على الدولة العثمانية ولإيقاف المعارك التي يقودها أحمد الشريف وبالتالي ستصبح غير قانونية، وقد عين أحمد

[1] هو الشيخ أحمد الشريف ابن العالم محمد الشريف بن محمد بن على السنوسي مؤسس الحركة السنوسية، والدته كريمة بن عمران ابن بركة، وعمه محمد المهدي وجده لأمه من كبار العلماء « عمران بن بركة الفيتوري»، ولد أحمد الشريف في واحة الجغبوب الواقعة جنوب شرق برقة في ليلة الأربعاء السابع والعشرين شوال لسنة 1290هـ الموافق لسنة 1873م، حفظ القران الكريم في سن مبكرة، وانكب على مختلف العلوم، فدرس عند عمه المهدي، وأحمد الريفي ومحمد مصطفى المدني التلمساني، ساهم في نشر الإسلام أيضا وذهب سنة 1900م رفقة عمه إلى منطقة ''قرو بالسودان'' للدعوة ونشر تعاليم الدين الإسلامي، بويع في سنة 1902م بخلافة الحركة السنوسية بعد وفاة عمه محمد المهدي ولقي حظوة من الناس لما لمسه فيه من حزم واستقامة وسداد في الرأي ومعرفته الواسعة بشؤون الحركة، واتخذ الكفرة عاصمة له، قاد أحمد الشريف عام 1909م مقاومة ضد فرنسا في تشاد خلال حملته الدعوية، حيث حاول التصدي لها لكن قامت بفرض حمايتها على المنطقة وانتقاما منه عملت على تهديم كافة الزوايا والمعالم التابعة للحركة السنوسية. تولى أحمد الشريف سنة 1911م قيادة المقاومة ضد إيطاليا في ليبيا وأخذ في تنظيم المعسكرات والنداء في الناس إلى الجهاد، وقد قام السلطان العثماني عام 1914 بإصدار فرمان يقضي بتوليته النيابة عنه في شمال إفريقيا تم توريطه في الحـ ع 1 و قاد حملة إلى مصر ضد بريطانيا إلى جانب تركيا وألمانيا سنة 1915، بعد نهاية مقاومته انتقل سنة 1917م إلى تركيا عن طريق النمسا وأستقبل بحفاوة كبيرة من طرف السلطان العثماني وتُوجه بالوسام المجيد، وبعدها توجه نحو الحجاز أين سمح له الملك عبد العزيز بالإقامة هناك وظل فيها إلى غاية وفاته إثر مرض عضال في يوم الجمعة العاشر من مارس سنة 1933م ودفن بمقبرة البقيع، من مؤلفاته: السراج الوهاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب إلى التاج- الدرة الفريدة في بيان مبنى الطريقة السنوسية – بغية المساعد في أحكام المجاهد – الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية. أنظر للاستزادة: الطاهر الزاوي، أعلام ليبيا، مؤسسة الفرجاني، ط 2، طرابلس، 1971، ص 51.

الشريف القائد العسكري عزيز المصري لإدارة المعارك الذي كان يحاول التنسيق مع الطرابلسيين وعلى رأسهم الباروني، وقد دارت معارك عديدة في المنطقة الغربية والوسطى من إقليم الشرق كمعركة القربا ع 16 ماي 1913، معارك شتوان، معركة قارنيوس 26 مارس، معركة الرجمة 22 أفريل، معركة الأبيار، معركة البويرات 18 جوان بالجبل الأخضر، معركة الصفصاف 1جويلية...الخ.

ولما لم تستطع إيطاليا القضاء على مقاومة أحمد الشريف حاولت استمالته عن طريق عزيز المصري لكنها فشلت في ذلك، وفي سنة 1914 تمركزت غالبية قوات أحمد الشريف (حوالي 7000 مقاتل) على الحدود المصرية الليبية (=منطقة امساعد) من أجل الامداد بالمؤونة والأسلحة من مصر، وكانت الحرب العالمية الأولى على وشك الاندلا ع، وقد عقد تحالفات مع البريطانيين لتأمين دخول الأسلحة، خاصة وأنهم كانوا يستفيدون من ذلك للضغط على إيطاليا في الحرب.

2- أحمد الشريف والحرب العالمية الأولى وأثر هذه الأخيرة على المقاومة في ليبيا:

قامت إيطاليا, بعد احتلال ليبيا, ببذل كلّ جهودها من أجل تحويل هذه البلاد إلى رأس جسر حربي لتحقيق تغلغل أكبر في إفريقيا. ولقيت مخطّطات الفاشست الإيطاليين كلّ تأييد من جانب ألمانيا الهتلريّة.

وعند بداية الحرب العالمية الأولى, صارت ليبيا ميدان تصادم للمصالح بين الكتلتين الأمبرياليتين المتصارعتين, الحلف الثلاثي ودول الائتلاف, وكانت كلّ منهما تحاول أن تستخدم الشعب الليبي كـ"حجرة شطرنج" من أجل تحقيق مخططاتها الاستعمارية في ليبيا. وقد سعت الدول الكبرى لكسب ودّ أحمد الشريف للوقوف معها في هذه الحرب، وقد حاولت تركيا وألمانيا أن تجر أحمد الشريف للدخول في الحرب ضد بريطانيا على الحدود، وقد رفض ذلك أحمد الشريف الذي كان مشغولا بمقاومة الطليان محاولا الاستثمار في الفرصة لإخراج الايطاليين الذين قلت امداداتهم للجيش في ليبيا لتعدد جبهات المعارك في أوروبا. وقد رأى الليبيون أن يقفوا إلى جانب المعسكر المعادي لإيطاليا, لذلك انضموا إلى معسكر الوسط خاصة وأنه يضم الدولة العثمانية, وبمجرد دخول هذه الأخيرة الحرب, حاولت استدراج أحمد الشريف وأرسلت له بعض العتاد وكبار الضباط, ولم يلبث أن أصدر الباب العالي فرماناً سلطانياً حمله أنور باشا إلى أحمد الشريف يبلغه قرار السلطان بتعيينه نائباً عنه في إفريقيا الشمالية وله كل الصلاحيات لاتخاذ القرارات دون الرجوع إلى الباب العالي وذلك شهر جوان 1916م، وذلك مقابل تكبيد بريطانيا الخسائر واضطرارها تحويل جزء من قواتها العسكرية إلى الحدود المصرية الغربية, وهذا ليخفف الضغط العسكري على القوات

الألمانية والتركية في الجهات الأخرى. وبعد محاولات عدة رفض أحمد الشريف ذلك وقال لهم: "الحرب الذي يأتيك يجب عليك مدافعته بأي حال من الأحوال، والحرب الذي يأتيك يجب عليك الاستعداد له...".

حاولت المخابرات العثمانية أن تغتال أحمد الشريف السنوسي بعد رفضه للدخول في حرب ضد بريطانيا، فقنبلت خيمته لكنه نجا منها وعاقب الخونة، فاضطرت المخابرات إلى فبركة الأوامر وارسلوا تعليمات إلى قوات أحمد الشريف لمهاجمة القوات البريطانية على الحدود المصرية، كما بثوا دعاية في مصر تقول أن أحمد الشريف يريد الزحف على مصر، وهو ما أجج الفتن بينه وبين البريطانيين الذين لم يبدوا في بادئ الأمر استعدادا لقتاله، لكن العاطفة لعبت دورها ومال أحمد الشريف إلى الدولة العثمانية (تركيا) وألمانيا خاصة وأنه كان ينتظر مساعدات منها ودخل بالتالي في حرب ضد الانجليز على الحدود المصرية بقواته التي بلغت 4000 مسلح، وانضم إليه الضابط المصري المنسحب من الجيش البريطاني "محمد صالح حرب" في حين جهزت بريطانيا قوات تعدادها 30000 من المشاة والفرسان، وقد حدثت معارك كثيرة ابتداءا من نوفمبر 1915م، ونذكر منها معركة وادي ماجد ديسمبر 1915، معركة بوتونس، وقد نشبت خلافات بين أحمد الشريف ونوري باشا سنة 1916 حول نقص الإمداد بالسلاح والمؤونة من طرف الأتراك والألمان وعقد اجتماع في جانفي 1916 داخل خيمة أحمد الشريف بحضور نوري باشا وجعفر العسكري ممثلان للطرف التركي ومحمد صالح حرب ممثلا للطرف المصري وقد لام أحمد الشريف الضباط الأتراك قائلا لهم: "لقد اقفلتم من أين نتنفس...".

حدثت بعد ذلك إجراءات وتغييرات حربية جديدة من طرف أحمد الشريف، وحدثت معارك عدة

بين قواته وقوات الإنجليز كمعركة وادي مقتلة، ومعركة العقاقير التي أشرف عليها نوري باشا، وقد فشل المجاهدون في تحقيق النصر وطاردتهم الدبابات والطائرات البريطانية وقامت بتشتيتهم عن طريق الإنذارات وعمليات القصف، واستولت على سيدي براني في 28 فيفري 1916، كما حدثت معارك في بقيق (=شرق السلوم) على الحدود الليبية المصرية، وانهزمت قوات أحمد الشريف أيضا وسيطرت القوات البريطانية على السلوم، واسيوط، والغيوم.

3- نهاية مقاومة أحمد الشريف:

في 8 فيفري 1917 داهمت القوات البريطانية واحة سيوة وحدثت معركة استمرت ليوم، ثم انسحبت قوات أحمد الشريف إلى الجنوب ووصلت إلى الجغبوب وهناك دارت معركة فاصلة كانت لصالح البريطانيين وقضي على جيش أحمد الشريف بصفة نهائية.

انسحب أحمد الشريف وعاد إلى ليبيا, بعد أن فشل في الدخول إلى مصر, بعد أن انهزم على أيدي الإنجليز عند الحدود المصرية, وغلق هذه الأخيرة من قبل البريطانيين, والتي تعتبر الثغرة الوحيدة لتموين المقاومة بالمدد والسلاح, وأمام فشل الحملتين الشرقية والغربية على مصر, وتدهور الحالة الإقتصادية في برقة والظروف التي قد اعترضته من مواصلة الكفاح من الأسباب التي دفعت بأحمد الشريف إلى تسليم السلطة في برقة إلى محمد إدريس السنوسي.

قرر أحمد الشريف بعد انهزامه مغادرة الجغبوب عن طريق الصحراء، ثم ذهب الى سرت، ثم انتقل إلى الساحل النمساوي، ثم إلى فيينا عاصمة النمسا، وتابع رحلته إلى استنبول أين استقبله كبار رجال الحكومة العثمانية هناك على غرار أنور باشا، حاول بعدها أحمد الشريف مواصلة الجهاد مجددا والدخول إلى ليبيا بعد أن تحصل على موافقة بالحصول على امدادات وأسلحة من طرف أنور باشا، لكن سقوط هذا الأخير من الوزارة غير الحسابات، وبعد قيام الجمهورية التركية في 29 أكتوبر 1923 وإلغاء الخلافة الإسلامية، هاجر أحمد الشريف إلى الحجاز وعاش هناك متنقلا بين مكة والمدينة إلى أن وافته المنية في 10 مارس 1933 بالزاوية السنوسية في المدينة المنورة ودفن بالبقيع.

لقد أثرت هذه الحرب على المقاومة الليبية تأثيراً سلبياً حيث جرت سنة (1914- 1916م) في الوقت الذي كانت فيه قوات المقاومة في ليبيا قد ألحقت الهزيمة بالقوات الإيطالية وأطاحت بها. وبعد تولي إدريس السنوسي زمام الأمور قلة المواجهات العسكرية بين الطرفين بسبب عقد بعض الاتفاقيات والمعاهدات بين الليبيين والإيطاليين وخاصة السنوسيين منهم, ليبقى الوضع على ما هو عليه حتى استولى الفاشيست على السلطة بزعامة موسوليني في إيطاليا في 22 أكتوبر 1922م, الذي كان يُمني نفسه بإعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية وتدشين مرحلة احتلال حقيقية وبداية العهد الفاشي لتحقيق أهداف كبرى لترسيم الاحتلال, فوضع حداً لسياسة التقرب مع السنوسيين ومحاولة استرضائهم بإلغاء جميع الاتفاقيات التي وقعت بين الطرفين, وبهذا فتح عهد جديد من الكفاح والمقاومة الليبية بقيادة القائد عمر المختار والوطنيين الليبيين.